الفساد وتهديد منظومة القيم الإنسانية

عدنان الصالحي

تحظى ظاهرة الفساد 'Phenomena Corruption' باهتمام واسع من قبل غالبـية دول العالم والمنظمات الدولية الحـكومية وغير الحـكومية ومراكز البحـوث والدراسـات، فمنذ النصف الاخير من سبعينيات القـرن الماضي، بدأت الأصوات تتعالى بـضرورة وضع حلول حقيقية للظاهرة وإيجاد المضادات الفعالة تجاهها، نظرا للآثار السلبـية التي تخلفها على التنمية السياسـية والاقـتصادية والاجتماعية والثقـافية والدينية.

وقـد ظهر منذ ذلك الحـين العديد من الدراسات والأبحاث التي تناولت ظاهرة الفساد، قدم فيها الباحثون عرضا لصور ومظاهر وأسباب ودوافع الفسـاد، في محـاولة منهم لكشـفها والدعوة إلى مكافحتها والحد من انتشـارها ورغم الجهود المبذولة إلا إن الحالة تحـولت من ظاهرة محـلية إلى ظاهرة عالمية وانتشرت واستشرت بشكل كبير، حيث وصلت في السنوات الأخيرة الى درجة تورط بعض أعضاء في المنظمة الدولية للأمم المتحدة وبعض المنظمات الدولية الأخرى وقادة الدول العظمى في قضايا فساد أخلاقية وإدارية ومالية.

القضية تستوجب تعاوناً دولياً مشـتركاً 'حكومات، وبـرلمانات، ومنظمات غير حكومية، والقـطاع الخاص، ووسـائل الإعلام المختلفة' لمواجهتها وإيلاء قدر أكبـر من الإهتمام بـهـا، ووضع استراتيجيات تحثث باسـتمرار لضمان مواجهة المشـكلات الناجمة عن كل صور الفساد المعاصرة. هذه الجهود لا تقتصر على الدول المتقـدمة فحسـب، وإنما يجب أن تشمل أيضاً الدول النامية التي تعاني هي الاخرى من تفشـي هذه الظاهرة بصورة أكبر مما تعانيه الدول المتقدمة، حتى أضحى موضوع الفساد يتصدر قائمة اهتمامات الحكومات فيها. وحـيث يعرف الفساد لغة:- هو في 'فسد' ضد صلَح 'والفساد' لغة البطلان، فيقال فسد الشيء أي بطُل واضمحـل، واصطلاحا له معان عديدة ولكنه يجمل بسوء اسـتخدام المنصب العام لغايات شـخصية الا ان المفهوم في عصرنا الحالي بـدأ يأخذ أبـعادا أخرى كثيرة ليكون أعم وأشمل بحـيث يشـمل كل اختلال مقصود في الحياة العامة سياسيا كان أم اقتصاديا أم اجتماعيا أم ثقافيا أم أخلاقيا أم دينيا.

انواع الفساد

يتنوع الفساد بأشكال ومظاهر اهمها:

1- الفساد الاداري والمالي:

ويعرف بالانحـرافات الإدارية والمالية والوظيفية أو التنظيمية والمخالفـات التي تصدر عن الموظف العـام أثـناء تأديته لمهام وظيفتـه فـي منظومـة التشـريعات واسـتغلال المناصب المشـغولة من قبله والصلاحـيات المخولة إليه فـي الوظائـف العامـة ومخالفة القواعد والأحكام المالية التي تنظم سـير العمل الإداري والمالي والرقابـي في الدولة ومؤسسـاتها، واغلب أسبابه ناتجة من محاول الكسب السريع والإثراء على حساب المصلحة العامة. ويتجلى بعدة صور منها: سوء استـخدام واسـتغلال النفوذ الوظيفي، سوء الإدارة، تبادل المصالح الخاصة، الرشوة، السرقة، الوساطة، الاختلاس، التزوير، الروتين والبيروقـراطية، المحاباة، اللامبالاة، الابتزاز، حـجب المعلومات، تشـويه الحقيقـة، سـوء التصرف، الكسب غير المشروع، تأخير العملية الإنتاجية وتعطيلها، عدم احترام الوقت العام، الامتناع عن أداء العمل أو التراخي والتكاسـل وعدم تحـمل المسـؤولية، تخصيص الأراضي، المحاباة والمحسوبيـة في التعيينات الوظيفية، إعـادة تدويـر المعونـات الأجنبيـة للجيوب الخاصة، قـروض المجاملة التي تمنـح دون ضمانـات، عمولات البـنية التحـتية، العمولات والأتاوات المحصلة بحكم المنصب.

2- الفساد السياسي:

ويكون فيه الخطر كبيراً كونه يؤسـس لحالة تمتد الى مشروع متبنى من قبـل جهات حزبـيـة وكتل لها تأثيرها في توجيه الرأي العام من خلال مشروعها المطروح ويكون هدفه الأسـاس هو الوصول الى مصلحـة ذات الحـزب او التكتل في السلطة او الحكم بـعيدا عن المصلحة الوطنية للبلد، وتتمثل مظاهره في: الحكم الشمولي الفاسـد، فقـدان الديمقراطية والمشاركة الحقيقـية في صنع القـرار، فسـاد الوزراء ومن برتبهم، سيطرة نظام حـكم الدولة على الاقتصاد، تفشي القبلية والعشـائرية والطائفية والعرقـية، تولي الأقـارب للمناصب كبـديل عن اختيار الأكفأ والانزه، تفشي المحسوبية والمحاباة والواسطة، تأثير الأحزاب الحاكمة على مشاريع القـرارات المصيرية، التدخل في قرارات القضاء وعمله.

قد تتباين حالة الفسـاد هذه من الدول الديمقـراطية الى المحـكومة بـنظام شـمولي بنسـب متفاوتة لكنها في نتيجتها تعطي اثارا سلبـية مدمرة على المصلحة العليا للبـلاد عموما ويعزى بأهم أسباب شيوعه الى الأنانية الحزبية والارتبـاطات الخارجية والمراهقـة السياسية.

3- الفساد الاخلاقي: ويكاد يكون اكثر الانواع ظاهريا كونه يرتبط بالحـريات الخاصة وتصرفـات الافـراد ويتمـثل بمجمل الانحرافات الأخلاقية المتعلقـة بالسـلوك داخل منظومة التعاملات اليومية والانتهاك للقـوانين الشـرعية والاخلاقـية التي يدين بـهـا مجتمعه المنتمي اليه، متمثلة بالقـيام بـإعمال مخلة بالحـياء او التعرض للحـريات العامة ويرتبـط بـذات الفرد وان كان بمجموعه بشـكل قـاعدة خطرة على الساحـة العامة، وكثيرا ما ينتشـر في الدول التي تعاني من ضعف الثقـافة الدينية على السـاحـتين السياسـية والاجتماعية.

4- الفسـاد الاجتماعي: ويختلف عن سابقه كونه يشغل مسـاحـات اخرى في المجتمع ويأخذ جماعي تقريبا من بـث الإشاعة وإضاعة الحقـائق وتشويه الصور وخلط الأوراق وإشاعة الفوضى والتجاوز على القـوانين وعدم الالتزام بقـواعد السـلوك العامة وهو ناتج في اكثر صورة من حالة الجهل او التجهيل التي تشيع في البلدان النامية والفقـيرة خصوصا.

5- الفساد الديني:

ويعتبـر من اخطر أنواع الفسـاد على الاطلاق كونه يستخدم الاديان كغطاء لإضفاء الشـرعية على التصرفات غير القانونية و اللا اخلاقية، متذرعا ببعض المسميات والرموز لتمرير مايصبـوا اليه من اهداف بـعيدة كل البـعد عن المنطق العقلي والشرعي، ليجعل الامم تسـير نحـو الهاوية بـدون انتبـاه لمستقبلها، حيث يتصور البعض بـان البحـث في هذا المجال تجاوز على قدسية الاديان او المساس بـرموزها، ويتمثل فـي: التعصـب والارهـاب والتطرف والتقليد الاعمى، ويكون ناتج في اكثر صوره من الانحرافات العقائدية والفكرية. ويرى المرجع الديني آية الله العظمى السـيد صادق الشـيرازي أن: العلم الذي اعتبره الإسلام نورا هو العلم المقرون بتقوى الله تبارك وتعالى. لأن العلم بـلا تقـوى يؤدّي إلى الضلالة والإفساد والفسـاد كما في الرواية عن الإمام زين العابـدين (ع): "...فإنّ العلم إذا لم يُعمل به لم يزدد صاحبـه إلا كفرا ولم يزدد من الله إلا بُعدا". فعلماء السوء عبر التاريخ أفسـدوا الأمة وأفسـدوا التاريخ أيضا.

6- الفساد الاقتصادي:

وكما يبـدو من تسـميته فهو يقتحـم الجانب الاقتصادي للدول حيث يتسـلط اصحاب رؤوس الاموال الجشعين على مصادر الحـركة التجارية في البـلدان وعلى الغذاء بـصـورة خاصة، ويتحـكمون بـتواجده وغيابـه من الاسواق ولاسـيما في الدول التي تكون الحـكومات فيها ضعيفة او في طور النشـوء، ويتمثل بـاجلى صوره في: التلاعب باسعار المواد، الاحتكار، الغش الصناعي والتجاري، التهرب الضريبي والجمركي، اغراق السوق بـالمواد في فترات محـددة واضاعتها في فترات اخرى، حسب سياسة متبـناة لذلك من قبل البعض، ويعتبر من اهم اسبابه هو ضعف رقابـة الدول والحـكومات على الجانب الاقتصادي وعدم وجود سياسة اقتصادية ثابـتة، اضافة الى وجود الازمات الاقتصادية المسـتمرة في تلك الدول وسيطرة جهات احـادية الجانب على السوق.

من يتحمل المسؤولية؟

مما لايخفى بان للقيادات بشتى انواعها الدور البارز في المساهمة بشكل مؤثر في شيوع هذه الظاهرة كونها قد دخلت الساحـة اولا فمهدت الطريق للاخرين كي يدخلوه فمن طبيعة الانسان الفطرية ان يتبع من يقلده في اي ميدان يشـغله سياسـيا كان ذلك الميدان او دينيا او اقـتصاديا او غير ذلك، وللتحكم الدور التالي في المسؤولية حيث بدل ان تكون المحـارب المهم والبـارز في التصدي للظاهرة ترى على العكس فـان اغلـب ممن اتهموا بالفساد 'سياسيا، اداريا...' هم ممن يشـغلون مناصب مهمة وبـدرجات وكفاءات كبـيرة. ويرى المرجع الراحـل الإمام السـيد محـمد الشيرازي رحمه الله ان حـل مشـكلة الفساد تبدأ من القادة والمسؤولين لانهم النموذج الذي يقتدي بهم الشـعب، فاذا فسدوا فسد الشعب، وإذا اصلحـوا صلح الشعب، فان زهد الحاكم يوفر على الأمة أقصى قدر ممكن من المال إذ المال ليس مالا للحاكم بـل هو مال الأمة فإذا كان المال دولة بـين الحـكام وخاصتها تصرفاتهم المطلقة وتعرضهم الطاغي -ومن الواضح أن الحاكم ليس فردا أو عشرة أو مائة بل تحتف بـه حاشـية كبـيرة من المتملقـين والعاطلين والموظفين- لم يبق شـيء للامة كما نشاهد ذلك في الحكام المستبدين الذين يصرفون أموال الأمة في اللهو والعبث والتطبيل لأنفسهم.

ويجمع الاغلب ان للفسـاد انعكاسـات خطيرة وكبيرة بحـيث يمكن ان تبـلغ مستويات كارثية تتمثل بتهديد منظومة الحقوق البشـرية عموما وسـيادة الفوضى العارمة والتي تؤسس بدروها لمرحـلة انهيار كامل للمنظومة الانسانية، هذه التهديد اصبح من الخطر بحيث لايمكن لاحـد التنكر له فهو اليوم بدأ باستنزاف واسع لميزانيات الشعوب ومياهها وحرياتها واستحـكام قبـضة المفسدين على مصادرها، ومما لاشـك فيه بان السبب الرئيس في جميع ماتقدم هو وجود اختلال في منظومة القـيم الانسانية لكل من يمارس الفساد بجميع الوانه او انواعه، وغياب الرقيب الذاتي والوازع الاخلاقي.

ما نحن بحاجة اليه

مما لاشك فيه بـان كل إصلاح يجب أن يبنى على أرضية صالحة وقاعدة متينة وهذه القـاعدة يجب أن تكون مهيأة لتحمل ما سيبنى عليها من بـناء مهما كان حجمه وثقله ولعل النفس البشرية هي في الحقيقـة من أهم المواد والأسـس التي تحـدد فشل أو نجاح العمل، وإصلاحـها هو الخطوة الأولى التي يجب أن تسبـق جميع الخطوات الأخرى بل يتوقف نجاح وفشل ما سيلي على ما سـينتج من ذلك العمل فيقـول الإمام الشيرازي رحـمه الله في مجال تثقيف وبناء الذات "...إنّ مسألة الثقافة من أهمّ المسائل في كل أمّة وحـضارة، وقد يصحّ ما يقال بـأنّ العالم يدور على عجلة الاقتصاد والسياسة، ولكن الأصحّ من ذلك هو القول بأنّ الثقـافة هي التي توجّه الاقتصاد والسياسـة، فبقـدر ما يحـمل الفرد من ثقـافة وعلم في كلا المجالين، فإنّه لا يَخسـر ولا يُغلب، إنّ الثقافة الصائبة وحـدها القـادرة على مواجهة وتصحـيح ما نراه من ثقـافة ضحـلة في عالم اليوم، لأنّ القـوّة أو المال أو غير ذلك يعجز عـن مواجهة الثقافات وتغييرها، إذ لا يقارع الثقـافة إلا الثقـافة.... ومن هنا كان العمل الثقـافي من أهمّ الأعمال في المجتمع، فهو يمثل البـناء التحـتي لغيره من الأعمال...".

ويرى الإمام الشـيرازي بـأن "من الضروري على الدولة التي تقـوم في العراق محاربة الفساد بأقسامه، وغير ذلك فأن الفسـاد يوجب تأخر الأمة وتدمير الشعب بعد أن يسلب اطمئنانهم بالدولة".

الحلول والمعالجات

أما ما يجب إجراءه على حـالة النخبة الإدارية والفنية لمواجهة وباء الفسـاد فيمكن حصره في:

1- إجراء تغييرات حقيقـية وواسـعة تشمل جميع المؤسسـات تتركز حـول إصلاح مافسد منها وإيجاد سياسة ثابتة وواضحة تعتمد الشفافية مبدأ لها.

2- العمل بشكل كبير على مبدأ القيم الاخلاقية واصلاح المنظومة البشـرية بطبيعتها الانسـانية باستخدام جميع الوسـائل الممكنة والعودة بالانسـان لشكله الحقيقي البسيط غير المعقد.

3- أهمية الديمقراطية المنضبطة كآلية للعمل الحر والتنافس السلمي الخلاق، وتداول السـلطة سـلميا في جميع الميادين وعلى اساس الاستحقـاق القانوني والعقلي.

4- تربية افراد المجتمع بجميع الوانهم واعمارهم على ثقافة احترام القـانون، وتصحـيح جميع الثغرات في تلك القوانين.

5- تصدي علماء الأديـان الأفاضـل للمفسـدين باسـم الدين أي كان لونه وصلته وفضـح أهدافهـم ونواياهـم وحماية البسطاء من الناس من الوقوع في شراكهم.

6- معاقبة كبار المختلسين واللصوص والمفسدين المحترفين وفضح سـورهم وتاريخهم بجميع الميادين وبغض النظر عن مكانتهم.

7- العمل بمبـدأ الشـفافية والوضوح الكامل في جميع الميادين الحـياتية والانفتاح على المجتمع وعدم الترفـع بالمواقـع العليا او الانزواء بـعيدا عن الانظار بحجج واهية.

8- تفعيل دور المواطن كأسـاس في مكافحة الفساد بشـتى أنواعه بـجعله القـيمة العليا في جميع ذلك وتحـريك مدركاته الأخلاقية والدينية والثقـافية والحضارية في مواجهة التحديات.

9- وضع الاتفاقات الدولية الواقعية قيد التنفيذ والخاصة بمحاربـة الفسـاد والإفسـاد وجعلها في مصاف الإرهاب الدولي.

10- استخدام الإعلام المهني الصادق المبـنـي على الدلائل والوثائق في عمليات كشف وفضح الفساد صغيره او كبيره، وتحرير السلطة الرابـعة من أي قيود.

11- إقامة المؤتمرات وإعداد البحوث والدراسـات الخاصة بمكافحـة وبـاء الفساد ووضع التوصيات والقـرارات موضع التنفيذ.

إن مواجهة هذا المد الهائل من الفسـاد المتنوع يكون عبر الارتقاء بثقافة قـيم انسانية سـليمة ترتكز على تحـملنا جماعيا للمسـؤولية وعدم الهروب الى مستنقـــع الانانية والنفعية واللا مسؤولية.

* مركز الإمام الشـيرازي للدراسـات والبحوث.

نقاط ملونة

عدنان احمد

السنة الجديدة

انها تقترب من الفجر هكذا هي عقارب الساعة التي مابرحـت تدور فها هي المهمة التي انيطت بها وكانت الريح تعبث بالمكان اذا اخترقت النافذة المطلة على باحـة المكان وهاهي تتهادى بين بـين زوايا الغرفة حـتى وصلت الى الكرسي الذي القيت عليه كل التعب المثقل بـتفاصيل اليوم الذي مر من غير ان يترك اثرا للراحة فاستقر المكان وعلى هذا الكرسـي الذي جلست عليه متأملا الاتي من المكان والاتي من الزمان يكون المكان الذي فيه تستقـر كل التفاصيل ويرتاح عنده الجسد المثقل بأنواع التعب...ولم يكن من بـدٍّ من أن استرجع كل التفاصيل بحيثياتها وأشكالها إلا ان السنين مسرعة كما لو كانت ريحا مرسلة تدفع بالسحب صوب المزن فالزمن الاتي لاينقطع عن التفاصيل بل ان الاتصال بـين الاشـياء هي الصلة الموصلة لتجديد تفاصيل الاتي من الزمان والمكان لذلك كان اليوم كما الغد إلا أن الاختلاف بـين الاوقـات هو المنعطف بالنسبة للأشياء والتفاصيل... بشكلها وجوهرها وتبقـى الأمنيات أمالي ذلك الوصل ليمسك الزمن نحو التواصل وها هي الحياة لاشيء يؤخرها او ليس يؤرخها إلا اللحظات الفاصلة بين التواصل في استيعابـاته للشكل والحيث وهاهي السنة الجديدة تدخل لتكون وحدة بين تسلسل الفواصل لبلوغ الاتصال والأشياء تسير في هذا الشكل المؤطر إذ تتكون الحيثيات والأشـكال الفجر مايزال عند تلك الفواصل إذ غبـش الفجر شفقـا ورديا وانا في تلك الأثناء تجلت في خاطري كل التفاصيل السـائرة نحـو الأتي من الزمان والمكان فلا شيء أفضل من أن تنتظم التفاصيل وتراجع النفس عن الأشياء وعن مكنون الأفعال فالسير الى الغد إن لم يكن ضمن الأستيعاب والرضا عن كل ما تلفظه لم يكن سيرا إلا بمقدار المراوحـة ضمن النقـاط الفاصلة بـين الأشياء فلي الآتي الزمان والمكان والفجر قد لطخ جبين الصبح بـلونه كان لابد من الأنطلاق نحو الأستقـرار والأستبصار بمقـوم النجاح والمحبـة والأستيعاب وأن تكون حاضرة أمام أعيننا حقيقة أنّ السير إلى الآتي...

لابد له من ان يكون اضطراراً مع التطور و الأرتقاء بكل الأشياء...

الانترنت... تاريخ مجهول

إسماعيل سراج الدين

مر يوم 29تشرين الاول 2009 مثل أي يوم عادي في حـياة أغلب المواطنين، ولكن لقـلّة منا، لم يكن يوما عاديا بـالمرّة، فهو يواكب مرور أربـعين سـنة على أعظم اختراع في تاريخ الإنسانية! هذا الاختراع الذي لم ينته بعد من تغيير مسيرة حياتنا، بـل مازال في أوائل تأثـيره علينـا، هـو الإنترنت! وأقـول دائما إن هناك ثلاثة أشخاص غيّروا تاريخ الإنسـانية ولا يعرفهم الجمهور العريض، بـل لا يعرفهم سوى العلماء المتخصصين.

فإذا كان الجميع يدرك من هو بـيل جيتس Bill Gates، مؤسس شركة مايكروسـوفت، فإنهم لا يعرفون العمالقة الثلاثة الذين أردت أن أحييهم اليوم باعتبارهم أكبر بـناة في التاريخ ومن أعظم من أفادوا الإنسانية منذ أن اكتشف الإنسان النار. والقصة تبدأ بصديقي العزيز فينت سـيرف Vint Cerf وبـعض زملائه وما كانوا يفكرون فيه من كيفية توصيـل آلـة كمبيوتر بـأخرى، فتخاطب الأولى الثانية دون تدخل إنساني إلا في إدخال الرسالة من ناحـية الآلة الأولى، وفي القراءة من الناحـية الأخرى من الآلة الثانية. وفي ذلك اليوم تمكنت الآلـة الأولى من إرسـال الحـرفين "L O" وهما أول حرفين من كلمة Log On التي كان يبدأ بها الإنسـان التعامل مع الكمبـيوتر آنذاك، ولكن سـجلت هذه الحروف في الآلة بلوس أنجلوس قبل انقـطاع الاتصال –والمسـافة بـين سـتانفورد ولوس أنجلوس أكثر من 500 كيلومترا! وكـان ذلـك ميلاد الاتصال بين آلات الكمبيوتر.

وتسـتمر قـصتنا عبـر العديد من المبادرات والاختراعات إلى أن تمكن كل من فينت سيرف وصديقـه بـوب كيهن Bob Kahn من كتابة برنامج أساسي عرف عالمياً باسـم TCP/IP وكان ذلك في عام 1973. وتوالـت التحسينات، ولكن يعترف الجميع بأن الـ TCP/IPهو البرنامج الأساسي لشبـكة الـ ARPANET التي أصبحـت الشبكة التي عرفها العالم باسم الإنترنت فيما بـعد، والتي أيضا تعتمد كليًا على بـرنامج TCP/IP. وهكذا أصبح فينت سيرف وبوب كيهن عملاقين في تاريخ الإنسانية، حـيث كانا بحـق مخترعي الإنترنت. ورغم النجاح البـاهر الذي أحـرزته هذه الشبـكات، إلا أنها لم تصل إلى الجمهور العريض من الإنسانية سوى باختراع عظيم قام بـه العملاق الثالث وهو عالم بريطاني اسمه تيم برنرز لي Tim Berners–Lee. كـان تيم يعمل في المركز الأوروبي للدراسـات النووية CERN في جينيف آنـذاك، حـيث اخترع الشبـكة العنكبـوتية العالمية World Wide Web والتي تعرفها جميعا بالحروف WWW التي تتصدر كل المواقـع على الإنترنت، واخترع معها لغة الـ HTML وهـي لغة التعامل مع الشبـكات. وبـذلك اكتملت المكونات الأساسـية لذلك الاختراع الفريد "الإنترنت" الذي غيـر مسـار التاريخ، وكان ذلك في عام 1990. وجاء آخرون بـاختراعات أخرى كثيرة، لكل منها إسهام في بناء ذلك الصرح العظيم الذي أدخلنا القرن الحادي والعشرين بقـدر من التواصل لم يكن يحلم به آباؤنا. ولا أريد هنا أن أقلل من شأن إنجازات مصممي الآلات Hardware في تحقيق هذا الحلم، أو إنجازات آخرين في هذه الرحـلة الهامة، ولكن أظن أن البـرامج الـ Software هي الأساس الذي يحرك هذه الآلات، ومن ثم يحق لنا أن نعتبر أن الفضل الأكبـر هو لفينت سـيرف وبوب كيهن ثم لتيم برنرز لي، فتحية للعمالقـة الثلاث بمناسـبة ميلاد الإنترنت. وعودة إلى ذلك اليوم العظيم الذي شـهد هذه الرسـالة الصغيرة البائسـة "L O"، لم يكن أحـد من المشاركين الشباب يتخيل أن هذه هي بـداية الرحـلة التي سـتغير مسـار التاريخ، بل ربما شـاهدها الكثير من أساتذتهم ومعلميهم آنذاك واعتبروا ما يقـومون بـه مجرد ترف لا معنى له وليس ذا فائدة... ولكن من هذه البذرة الصغيرة نمت الشجرة العظيمة، فياله من درس لكل أسـتاذ كبير يتابـع محاولات الشباب الذين يريدون تحقيق أحلامهم! وبهذه المناسـبة، حـضر العلماء الثلاثة إلى مصـر فـي عـام 2009.

أما فينت سيرف 'أبو الإنترنت'، فقـد أمضى أسبوعا كاملا معنا في مكتبـة الإسكندرية حيث تقوم معاً بالإشـراف على مشـروع لدعم إمكانيات تعليم العلوم في الـدول النامـيـة. وفينـت سيرف العالم الذي أتى بـالإنترنت إلى عالمنا هذا يعمل الآن مع جوجل، بينما تنصب أبحاثة على مجال الإنترنت بين الكواكب! فأحلام الشبـاب تحققـت، ولكن ذلك العالم الحالم ما زال ينظر أبعد من أفق الآخرين... وهكذا يتقدم العلم وترقى الإنسانية.

سعادتنا من صنع أيدينا

بقلم: نورة الودغيري

لقد احتلت إشكالية السـعادة حيّزا كبـيرا في اهتمامات القـدامى والمحدثين وظلّت أولوية في الحـياة على مرّ العصور ومطلبا يتنافس فيه المتنافسـون ورغم ما ذهب إليها الكثيرون من مذاهب في تفسـير السـعادة وتأويلها فإنها في نظري ليست سوى ما تلقاه نفس الإنسـان من إحساس بـالرضا والارتياح وما يكون عليه عقلـه من بـصيرة ووضوح وما يرتسم على ملامحـه من الانبساط والانشراح بما يجعله مقبلا على الناس بحماس متعلقا بالحـياة مستمتعا بـملذاتها ومحاسـنها، والسعادة مع ذلك تظل مسألة نسبية مختلفة من شـخص إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى حسب اختلاف الأنماط الثقـافية والاجتماعية للأشـخاص وحسب خصالهم الذاتية، فرُبّ امرئ حـين يعترضه عارض من عوارض القدر يلقـى في الشقـاوة ألوانا من الأسى ويظلّ في أحزانه أحقابـا من الزمن، ورُبّ شخص آخر حين يعيش الواقعة نفسـها لا يرى فيها إلا أمرا إلهيا ساريا بقدر وحـكمة بحـيث لا يحـرك سـاكنا وتظل حـياته على توازنها وانبساطها.

إن السعادة رغم كونها حاجة حيوية ومطلبا ضروريا في حـياة الناس لا تنطوي على مفهوم موحّد ولا تخضع لمعايير مشتركة من شـأنها أن تمثل محـرارا أو مقياسـا لمدى سـعادة شخص ما أو مجموعة بشرية معينة، ومع ذلك أقـرّ أنّ العوامل المادية والنفسية والروحية التي تحيط بذات الإنسان قـد تتضافر وتتداخل وتعمل على توليد الإحساس لديه بالسـعادة المنشـودة، والتي يمكن رصدها بوضوح في المستويات التالية:

في المستوى المادي حـيث تتحـقق مختلف الحاجات البيولوجية ويحصل الإشباع والانتشاء

وفي المستوى العقـلي حـيث يقـع الاهتداء إلى الطرق الناجحـة في التسيير و التدبير

وفي المستوى الوجداني حيث يحصل الرضا على الوضع المنجز والقناعة بالأمر الواقع

وبـالعموم غالبـا ما يتمثل الناس السـعادة من خلال الحـاجات التي يسعون لتحقيقها فمنهم من يربـطها بالمال ومنهم من يربطها بالعبـادة، ومنهم من يربطها بالصحـة ومنهم من يجدها في السـلطة ومنهم من يقرنها بالعرف والأخلاق ومنهم من لا يلقـاها في غير الملذات الزائلة والمحطات الزاهية.

ولمّا كانت السعادة عندهم جميعا على اختلاف مشاربهم مطلبا حيويا يوميا يبذلون في سبيل تحقيقـه ما لهم من طاقـات ويتعاطون من أجله سـائر الأسبـاب الموصلة إليه فإنّ ذلك في حـد ذاته يُعدّ دليلا على أنّ الحـياة الإنسـانية بـمفهومها الواسـع لا تستقيم بدون سـعادة بـل أذهب إلى القول أنّ غياب السـعادة يُغرق الفرد في الشقـاوة ويُزلزل كيانه ويهزّ قوامه ويُخمد جذوته ويتجه به نحـو التدمير الذاتي والعدمية الشخصية.

إذن ما دامت السـعادة حـاجة ماسّة وضرورة ملحّة فلا بُدّ مـن التفكيـر الدائم في سبل تحقيقـها ولا بـد من تجديد طرق تحـصيلها لأنها متغيّرة مفهوما وتمظهرا بـتغير الواقـع الموضوعي وبـتطور بـنية الأفراد النفسية والذهنية، فحـاجات الأمس على أهميتها في عصرها قد لا تصلح في عصرنا الراهن لتحقيق السـعادة الفردية والجماعية وسـعادتنا اليوم ليست بالضرورة كمثل سعادة أجدادنا بالأمس ولا كسعادة أحفادنا في الغد. لذلك علينا أن ندرك عصرنا ونتبيّن ملامح سعادتنا التي ننشدها لأنفسنا ولغيرنا ذلك أنّ سعادتنا جزء لا يتجزّأ من سـعادة غيرنا وسـعادة غيرنا بـدورها لا تستقـيم إلا بسـعادتنا، والإغراق في إقناع الذات من أجـل إسعاد الغير على حساب إسعاد النفس يتمّ عن خلل في التفكير، والإغـراق في إسعاد الذات على حساب إسـعاد الغير يتمّ بـدوره عن الحـراف في الشخصية، لأنّ المنهج السليم والفهم القـويم يفترضان الاعتدال والتوازن بـين إسـعاد النفس وإسـعاد الغير باعتبـارهما متلازمين يتأثر كلاهما بالآخر.

ومادامت السـعادة لا تأتي بمحـض الصدفة والحظ فعلينا أن نعمل عليها ونجهد من أجلها ونتبـع طرقـهـا السـليمة وأسبابـهـا المنطقـية مستعينين بالتخطيط المحـكم لها من خلال رسم الأهداف ممكنة التحقيق وضبط المراحل الكافية لتحـصيلها واجتناب الارتجال والعجلة في بلوغ الغايات القـصوى حـتى لا تكون النتائج دون المأمول وحتى لا تصاب النفوس بالخيبة والخمول واليأس.

خلاصة كلمي وموجز قولي، علينا أن نطوّر مفهومنا للسـعادة وأن نجدد طرقنا للأخذ بأسبـابها وأن نجهد في سبـيلها ونجتهد في إدراكها لتكون سعادتنا كما تمثلناها بين أيدينا لنسعد بها ونجعل غيرنا من حولنا سـعيدا بسعادتنا أو لسعادتنا، فهلا فعلنا؟؟؟

متى سأتذوق طعم العيد ؟!!

د. سعاد سالم : صنعاء

لا أدري لماذا كلما اقـترب موعد عيد من الأعياد الدينية وجدت نفسـي غارقة في ذكريات طفولتي والعيد؟!

قد يحتاج الأمر إلى محـلل نفسـي، لكني حتى لو اكتشفت أن انغماسي في هذه الذكريات في هذا العمـر لا يعـد دليلا على الصحة النفسية، فلن أتخلى عن ذكرياتي مع العيد، وسأرحـب بـالمرض النفسـي الذي يخفف عن القلب والعقـل وطأة الواقـع الذي يحاصرهما بالحـزن والألم من كل اتجاه..

أتذكر أنني حـينما كنت طفلة كنت أعتقد أن العيد جسـم نوراني كبـير يغطي السماء حـينما يظهر، وأنـه لا يظهر إلا لحظة شـروق شـمس يوم العيد، وأنه يظهر للحظات ثم يعود إلى بيته وراء الجبـل العالي الذي تظهر من خلفه الشـمس أمامي، وكنت أتصور أن للعيد يدين كبيرتين تمتدان من السـماء إلى الأرض لتحـتضنا رأس كل الذين يراقبون ظهور العيد، وكنت أتخيل أن العيد يمد يديه ليطعم حلوى إلى أي شخص يشـاهد طلوع شمس العيد، وكنت مقـتنعة أن هذه الحلوى ليسـت مثل الحـلوى التي نأكلها، بل هي حلوى مختلفة لا يمكن أن أجدها إلا مع العيد، ولن يقدمها إلى غير العيد، فكنت لا أنام ليلـة العيـد وإنما أقضي ليلة العيد كاملة متكورة في نافذة بيتنا الشرقية التي لا تتسـع إلا لنصف جسـدي الصغير راضية باحتـنـاء ظهري، وسـعيدة بهبـات النسيم الملامسة لخصلات شعري كيفما كان الطقس، فقد كان شعوري بمجيء العيد يجعل الطقس ربيعا يلطفني في الشتاء و الصيف لا فرق بينهما عندي في ليلة العيد.

كنت لا أتخلى عن انتظار العيد حـتى وإن نلت تأنيب أمي، فقـد كنت أسـد أذني عن أوامرها المتكررة أن أذهب إلى فراشـي، ولا أستمع إلا لصوت العيد، فكنت أقـضي كل ليلة العيد أرقب السماء وأغالب النوم، حـتى لا يفوتني شروق الشمس، وحتى يراني العيد وأراه، وبـالتالي أتذوق طعم حلوى العيد، وكنت زيادة في الحرص ألبس ثياب العيد الجديدة ليلة العيد، حتى أشد انتبـاه العيد إلي أكثر فأنال حلواه، على أمل أن أحـكي لأترابـي شكل العيد وأطعمهم معي من حـلوى العيد الذي التقيته وحدي، وهم نيام..

ولكن في كل عيد كان النوم يغلبـنـي قبل شروق الشمس بدقـائق، ولا أصحو إلا بعد شروق الشمس على أصوات الأطفال المحتفلين بالعيد في حارتنا الضيقة..

وتوالت الأعياد عيداً بـعد عيد، لا رأيت العيد، ولا يئسـت من انتظار العيد، هكذا كنت أنـا والعيـد فـي الطفولة...

وكبـرت وكبـر معي معنى العيد، وتحولت توقـعاتي التي أنتظرها إلى أمنيات، وكلما جاء عيـد زادت تلـك الأمنيات واتسعت، فقد أصبحت انتظر العيد الذي لا يعنيني وحـدي، لازلت أنتظر العيد الذي يحتضن كل أبـنـاء وطني، ولكنني في كل عيد لا أجد مـا أتمناه، فأخاصم العيد، ويبـتعد عني العيد أكثر، وسـأظل أنا والعيد لا نلتقـي، حـتى أرى العيد في بيوت الفقـراء والمحـرومين والأرامل والأيتام، وفي عيون أطفال الشهداء ونسائهم وأمهاتهم وأخواتهم..

سـأظل أنتظر طعم العيد في انتصار الحق على الباطل، سأظل أنتظر طعم العيد في سيادة النظام والقانون، وفي صحوة الضمائر، وفي سـد منابـع الفسـاد، سـأظل أنتظر العيد في مستقبل يقـتلع الحـزن من قـلوب الوطنيين، ويغرس الأمل في قـلوب المحرومين، وينتزع الحقد من قلوب المحبـطين، ويعيد تأهيل الشبـاب الضالين.

سأظل أنتظر العيد الذي يعيد إلى قلبي وعقـلي الهدوء، وإلى عيوني لذة النوم الذي كنت أشعر به قبل شروق شمس العيد أيام الطفولة، فما أشـد حـاجتي إلى العيد هذه الأيام !! وما أصعب انتظار العيد في هذا العمر؟!!

فهل سأتذوق طعم العيد الذي أنتظره قبل أن أغادر هذه الدنيا؟! . لن أيأس من انتظار طعم العيد، وأرجو من الله ألا يطول انتظاري، وما ذلك على الله ببعيد.